تحقيق مسألة تكرر النزول

محمد خازر المجالي*

ملخص

استهدفت هذه الدراسة الكشف عن حقيقة القول بتكرر نزول بعض آيات القرآن الكريم، وهي مسألة أثارها بعض العلماء عند تعذر الجمع بين الروايات الواردة في سبب النزول، أو كون السورة مكية أو مدنية وفيها تلك الآية أو الآيات التي لا تدل على ذلك. والذي انتهى اليه البحث بعد الدراسة التفصيلية لما ورد بشأن الآيات أن المسألة لا تستدعي القول بالتكرر، بل يمكن توجيه الروايات بالجمع أو بالترجيح بينها، أو أن هناك شبهة هي سبب الإشكال في المسألة.

المقدمـــــة

إن الحمد لله، نحمده تعالى ونستعينه ونستغفره، ونعوذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد، فإن مسألة تكرر النزول مسألة قديمة ذكرها العلماء عند حديثهم عن أسباب النزول والمكي والمدني. وإن الناظر إلى الأمثلة المذكورة تحت هذا المبحث لتشده إلى التحقيق والتثبت في المسألة بشكل عام وبيان مدى جدية طرح مثل هذه الموضوعات وصحتها. ولعل هذا الذي نريده في بحثنا آخذين بعين الاعتبار خطورة طرح مثل هذه المسائل التي تزخر بها كتب علوم القرآن بشكل خاص، وذكرها بعض المفسرين بشكل عام، فإن ثبتت هذه فبالدليل أو الحجة المقنعة وإلا فالسعي إلى إمكانية الخروج منها بأسلوب علمي، بالبحث عن أسباب قول العلماء بالتكرر، وإمكانية إيجاد توجيه آخر، متبعين في ذلك كله تحقيق الروايات ونقدها ومقارنتها مع الأقوال الأخرى إن وجدت.

وأجد من المناسب هنا ذكر شيء من عبارات العلماء القائلين بتكرر النزول، وأبدأ بما ذكر الزركشي في البرهان حيث أفرد عنواناً خاصاً بالمسألة وقال: «وقد ينزل الشيء مرتين تعظيماً لشأنه، وتذكيراً به عند حدوث سببه خوف نسيانه»[1]، وحذا السيوطي حذوه ولخص كلامه وأضاف: «صرح جماعة من المتقدمين والمتأخرين بأن من القرآن ما تكرر نزوله، وقال ابن الحصار: قد يتكرر نزول الآية تذكيراً وموعظة»[2]. وهكذا فتح الباب لكثير ممن كتبوا في علوم القرآن ليتحدثوا عن المسألة بالأسلوب نفسه واعتماداً على الأمثلة نفسها، وأستطيع القول إن قليلاً من العلماء عارضوا القول فيها، لكنهم لم يوضحوا حجتهم بالشكل الصحيح[3]، وسنعرض كلامهم في حينه إن شاء الله.

منهج البحث

سأبحث المسألة بناء على ذلك من الأمثلة الواردة في كتب علوم القرآن وذكرها بعض المفسرين عند بيانها، ولقد بحثت عن غيرها فلم أجد شيئاً. ومهما يكن فإني لا أدعي العصمة فلربما فاتني شيء، وإن كان ذلك فهذه الأمثلة تعتبر على الأقل نموذجا لغيرها. وسأرتب الآيات حسب ترتيب المصحف، واذكر من قال بتكرر نزولها ودليلهم إن وجد، ثم ادرس الحجة وأتحقق في أمرها، ثم أورد أقوال العلماء الآخرين إن وجدت، وأخيراً أخلص إلى الرأي الصحيح أو الأقرب إلى الصحة. وفي نهاية البحث أناقش المسألة بشكل عام من خلال ما يذكره القائلون بتكرر النزول من حكم وأسباب تدعم رأيهم.

(١) الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ط ٣، ج ١، دار الفكر، بيروت، ص ٢٩، ١٩٨٠.

(٢) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الاتقان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، ج ١، ص ٤٧.

(٣) ذكر السيوطي ذلك في الاتقان، ج ١، ص ٤٨. وانظر كلا من الزرقاني، محمد عبد العظيم، مناهل العرفان في علوم القرآن، ط ٣، دار احياء التراث العربي، ج ١، ص ١١٤، بيروت، والشيخ القطان، ابراهيم، مباحث في علوم القرآن، ط ٧، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص ٩١، ١٩٨٠.

* أستاذ مساعد، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية. تاريخ استلام البحث ١٩٩٥/٩/١١ وتاريخ قبوله ١٩٩٧/١/٧.

أسباب القول بالتكرار

قبل الخوض في الآيات التي قيل بتكرر نزولها أعرج قليلاً على أصل فكرة القول بتكرر النزول لألخص أهم أسبابها، فلعل ذلك يعين على الدراسة، فأقول: قد ذكرنا شيئا من كلام الزركشي والسيوطي حول المسألة، وهذا لا يعدو كونه نموذجاً لأقوال الآخرين، وقلنا كذلك إن العلماء ذكروا التكرر عند حديثهم عن أسباب النزول ومكية بعض الآيات أو مدنيتها، فالذين تحدثوا عن أسباب النزول كأحد علوم القرآن تطرقوا لها إما ابتداء كما فعل الزركشي والسيوطي، وقد ذكرنا ذلك، وإما أثناء بحث مسألة تعدد الروايات الواردة في سبب النزول والتوفيق بينها كما هو شأن العلماء المعاصرين(٤). ونضيف بأن شيئا من التفصيل حولها مذكور في بعض كتب التفسيرعند مناقشة الآيات التي قيل بتكرر نزولها، وذلك أثناء توضيح العلماء لها بعد ورود الإشكال الناتج عما ظاهره التعارض بين الروايات الواردة في سبب النزول وتعذر الجمع أو الترجيح بينها، أو أن يدل سبب النزول على أن الآية نزلت في المدينة بينما السورة المشتملة عليها مكية أو العكس، أو أن يختلف العلماء ابتداء في السورة كلها أمدنية هي أم مكية بناء على سبب النزول، كما حدث بالنسبة لسورتي الفاتحة والإخلاص. هذه أهم النقاط التي يمكن القول انها تشكل أسباب القول بالتكرر، ولعل دراسة الآيات توضحها أكثر إن شاء الله.

سورة الفاتحة

خلاصة القول بالنسبة لسورة الفاتحة أن هناك اختلافاً في تحديد كونها مكية أو مدنية، فمعظم العلماء على أنها مكية ومن أوائل ما نزل من القرآن(٥)، وقليل منهم يذكر أنها مدنية كمجاهد، وللتوفيق بين الرأيين ظهر فريق ثالث ليقول انها مكية مدنية او انه تكرر نزولها.

وعموماً، فإن اختلاف الرواية بمكيتها أو مدنيتها أظهر مشكلة وهي التصريح بأنها مكية مدنية أو أنها نزلت مرتين، وهذا الذي بحاجة إلى تحقيق، وإذا بحثنا عن حجة مقنعة من دليل نقلي أو عقلي فإنا لا نجد إلا أقوالا للعلماء المتأخرين ليس إلا(٦)، ومن هنا فلن نطيل مناقشة القول طالما ليس له دليل صريح، واكتفي بما قد يصلح دليلاً لهم أثناء مناقشة من قال انها مدنية، إذ المسألة كما تبدو لي افتراضية بنيت على افتراض صحة الروايتين في تحديد زمن النزول في كل من مكة والمدينة.

فالقائلون انها مدنية، ومنهم مجاهد، لم يذكروا أثراً صريحاً صحيحاً يدعم رأيهم، وقد عد بعض العلماء كالحسين بن الفضل هذه على أنها هفوة من مجاهد، لأنه تفرد بهذا القول والعلماء على خلافه(٧). ويقول ابن حجر: «وأغرب بعض المتأخرين فنسب القول بذلك لأبي هريرة والزهري وعطاء بن يسار»(٨). وبناء على ذلك فلنا أن نتساءل لماذا قالوا بمدنيتها وأدى ذلك للقول بتكرر نزولها!؟ لعل ذلك يستند الى ما رواه مسلم عن ابن عباس قال: «بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضا - صوتاً - من فوقه، فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته»(٩)، فظن بعضهم أنها مدنية لأن البقرة مدنية، وعموماً فقد رد العلماء على ذلك وعلى شبهة أعظم وهي أن جبريل لم ينزل بهذه الآيات، فبين

(٤) على سبيل المثال انظر في ذلك مناهل العرفان، ج ١، ص ١١٢-١١٤، مباحث في علوم القرآن للقطان، ص ٩٠-٩١، الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ط ١٨، دار العلم للملايين، ص ١٤٤-١٤٥، ١٩٩٠، أبو شهبة، محمد، المدخل لدراسة القرآن الكريم، ط ٣، دار اللواء، الرياض، ص ١٥٠، ١٩٨٧.

(٥) الواحدي النيسابوري، علي بن أحمد، أسباب النزول، دار المعرفة، بيروت، ص ١١. وهذا الكلام نجده عند جمهور المفسرين، انظر مثلا البغوي، الحسين بن مسعود، معالم التنزيل، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ١، ص ١١، ١٩٩٣، الألوسي، شهاب الدين محمود، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ط ٤، دار احياء التراث العربي، ج ١، ص ٣٣، ١٩٨٥.

(٦) انظر مثلاً الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف، دار المعرفة، بيروت، ج ١، ص ٢٣، القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، ط ٢، ج ١، ص ١١٦، أبو حيان الاندلسي، محمد بن يوسف، تفسير البحر المحيط، ط ٢، دار الفكر، بيروت، ج ١، ص ١٦، ١٩٨٣، الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، تحقيق أحمد عبد السلام، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ج١، ص ٥١، ١٩٩٤، الطبرسي، الفضل بن العلي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ط ١، دار المعرفة، بيروت، ج ١، ص ٨٧، ١٩٨٦.

(٧) العسقلاني، ابن حجر، احمد بن علي، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، دار الفكر، بيروت، ج ٨، ص ١٥٩، أسباب النزول للواحدي، ص ١٢، روح المعاني، ج ١، ص ٣٣.

(٨) فتح الباري، ج ٨، ص ١٥٩، وممن ذكر هؤلاء ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي، زاد المسير في علم التفسير، تحقيق أحمد شمس الدين، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ١، ص ٩، ١٩٩٤، تفسير القرطبي، ج ١، ص ١١٥، البحر المحيط، ص ١٦.

(٩) الامام مسلم بن الحجاج النيسابوري، الجامع الصحيح، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر، بيروت، رواه في كتاب صلاة المسافرين برقم ٢٥٣.

ابن عطية مثلاً أن جبريل تقدم الملك الى النبي عليه السلام، وأضاف القرطبي بأن كل القرآن نزل به جبريل، فيكون جبريل نزل بتلاوتها بمكة، ونزل الملك بثوابها بالمدينة[١٠]. فالحديث عن الثواب لا عن النزول.

ولعل ذلك راجع ايضا لما ذهب اليه بعضهم من تسميتها المثاني، فيقول الفيروزابادي: «وقيل نزلت بالمدينة مرة وبمكة مرة، ولهذا قيل له السبع المثاني لأنها ثنيت في النزول»[١١]. وهو قول عجيب. وعموماً أختم بقول الألوسي بأن نفي كونها مدنية هو الأصل، وعلى مدعي الإثبات الإثبات[١٢].

أما القائلون بمكيتها فهم جمهور العلماء، ومن أدلتهم:

١ - ما جاء في سبب النزول حيث وردت روايات عن علي وابن عباس بأنها نزلت بمكة في بداية البعثة[١٣].

٢ - ما روي في أن المقصود من قوله تعالى: (ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم)، (سورة الحجر، الآية ٨٧) هو الفاتحة، وذلك اعتماداً على ما رواه البخاري وغيره من حديث أبي سعيد بن المعلى قال: «كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم أجبه، فقلت يا رسول الله إني كنت أصلي، فقال: ألم يقل الله: (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم)، (الأنفال، الآية ٢٤). ثم قال لي: لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد، ثم أخذ بيدي، فلما أراد ن يخرج قلت له: ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: (الحمد لله رب العالمين) هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»[١٤]، وما روي عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقرأ عليه أبي بن كعب أم القرآن، فقال: «والذي نفسي بيده، ما أنزل في التوراة ولا في الانجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»[١٥]. فقالوا إن سورة الحجر مكية بلا خلاف، ولم يكن الله ليمتن على رسوله بإيتائه فاتحة الكتاب وهو بمكة ثم ينزلها بالمدينة[١٦]. وقد ذكر بعض العلماء توجيها آخر للآية بأن المقصود منها السبع الطوال، وصح إسناد الرواية في ذلك عن ابن عباس[١٧]، والجمهور على الأول. وذكر آخرون أنه ليس شرطاً أن تكون الفاتحة نزلت قبل الحجر فقد امتن الله على نبيه بقوله (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً)، وهذا قبل الفتح بسنين، والتعبير بالماضي لتحقق الوقوع، وقد استبعد الألوسي ذلك لاسيما مع إيراد اللام وكلمة (قد) ووروده في معرض المنة فالغالب فيها سبق الوقوع[١٨]، ونرد كذلك بأن الآية في صلح الحديبية لا في فتح مكة.

٣ - ما ذكره بعض العلماء من استحالة أن تكون نزلت في المدينة (بعد الهجرة) وإلا لقلنا ان النبي صلى الله عليه وسلم أقام بمكة بضع سنين يصلي من غير الفاتحة، ويقوي هذا ما ذكره القرطبي من أنه لا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة، وما حفظ أنه كان في الإسلام صلاة قط بغير الفاتحة[١٩].

من هنا، وبناء على قول الجمهور، ولأنه ليس هناك دليل قوي للقائلين بأنها مدنية، أجد أن لا حجة للقائلين بتكرر نزولها. والأولى الجمع بين الدليلين فيقال إن النزول كان بمكة، وحديث مسلم الذي يخبر بنزول الملك صريح في أن هذا لبيان الثواب بالمدينة. وهو رأي القرطبي.

قوله تعالى: (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم) (سورة التوبة، الآية ١١٣).

ورد في سبب نزولها روايات متعددة مختلفة المضمون

---

(١٠) ابن عطية، محمد عبد الحق، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ط ١، الدوحة،، ج ١، ص ٩٦، ١٩٧٧، تفسير القرطبي، ج ١، ص ١١٦.

(١١) بصائر ذوي التمييز، ج ١، ص ١٢٨. وانظر كذلك الخوئي، ابو القاسم الموسوي، البيان في تفسير القرآن، مطبعة الآداب، النجف، ص ٤٤٥، ١٩٦٦.

(١٢) روح المعاني، ج ١، ص ٣٤.

(١٣) انظر الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار المعرفة، بيروت، ج ١، ص ٣٦ - ٣٧، الواحدي، أسباب النزول، ص ١١-١٢، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، الدر المنثور في التفسير المأثور، ط ١، دار الفكر، بيروت، ج ١، ص ١٢، ١٩٨٣، روح المعاني، ج ١، ص ٣٣، فتح القدير، ج ١، ص ١٥.

(١٤) البخاري، محمد بن اسماعيل، الجامع الصحيح، المطبوع مع فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، والحديث مروي في كتاب التفسير، برقم: ٤٤٧٤، انظر الفتح، ج ٨، ص ١٥٦-١٥٧.

(١٥) الامام أحمد بن حنبل، المسند، ط ٤، المكتب الاسلامي، بيروت، ج ٢، ص ٣٥٧، ١٩٨٣.

(١٦) الواحدي، أسباب النزول، ص ١٢-١٣، معالم التنزيل، ج ١، ص ١١، زاد المسير، ج ١، ص ٩، تفسير القرطبي، ج ١، ص ١١٥، ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، ط ١١، ج ١٧، ص ١٩١، ١٩٧٨، فتح الباري، ج ٨، ص ١٥٩، روح المعاني، ج ١، ص ٣٣.

(١٧) فتح الباري، ج ٨، ص ١٥٨، روح المعاني، ج ١، ص ٣٣.

(١٨) روح المعاني، ج ١، ص ٣٣.

(١٩) القرطبي، ج ١، ص ١١٥، الواحدي في أسباب النزول، ص ١٣، بصائر ذوي التمييز، ج ١، ص ١٢٨، البيان في تفسير القرآن، ص ٤٤٤.

تتراوح بين الصحة والضعف، وليست المشكلة في ورود تلك الروايات فلا مانع من تعدد الأسباب والنازل واحد، ولكن الإشكال جاء في أصح الروايات المعتمدة عند جمهور المفسرين، بأنها نزلت في أبي طالب ووفاته قبل الهجرة، بينما الآية في سورة التوبة وهي من أواخر ما نزل من القرآن، فهذا الذي دعا بعض العلماء للقول بتكرر نزولها، يقول الزركشي: «هذه الآية نزلت في آخر الأمر بالاتفاق، وموت أبي طالب كان بمكة، فيمكن أنها نزلت مرة بعد أخرى وجعلت أخيراً في براءة»[٢٠]. وكلام الزركشي واضح في عدم الجزم به إذ بناه على الاحتمال، وذلك للخروج من هذه الشبهة دون البحث عن توجيه آخر، وعموماً فليس هناك دليل نقلي عن الصحابة أو تابعيهم يفيد بتكرر النزول، فتبقى المسألة تحت طائلة الاجتهاد.

وقبل أن أذكر توجيه بعض العلماء للمسألة، أذكر باختصار أصح الروايات الواردة في سبب نزولها، فيروي البخاري وغيره قصة وقوف النبي صلى الله عليه وسلم عند أبي طالب قبيل وفاته يدعوه لقول لا إله إلا الله، وأبى أن يقولها، فقال عليه السلام: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»، فأنزل الله الآية، وأنزل في أبي طالب: (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء)، (القصص، الآية ٥٦)[٢١]. وروى مسلم وغيره عن أبي هريرة أن النبي عليه السلام زار قبر أمه فبكى وأبكى من حوله فقال: «استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي»، ولم يذكر نزول الآية هو ولا الإمام أحمد ولا النسائي ولا ابن ماجة، إلا أنه وردت روايات أخرى عند الطبري والواحدي من حديث ابن مسعود تفيد بأن الآية نزلت عقب نهيه عن الاستغفار لأمه، وصحح ابن حجر هذه الروايات لتعدد طرقها[٢٢].

ومهما يكن، فالذي يعنينا هنا هو الشبهة القائمة التي ذكرناها سابقاً، ونقول باختصار إن العلماء أجابوا عليها، ونذكر مثالاً لإجابتهم ما رد به ابن حجر والرازي والألوسي.

أما ابن حجر فيذهب الى ترجيح تأخر نزول الآية، فيقول: «... وهذا فيه إشكال، لأن وفاة أبي طالب كانت بمكة قبل الهجرة اتفاقاً، وقد ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى قبر أمه لما اعتمر فاستأذن ربه أن يستغفر لها فنزلت هذه الآية، والأصل عدم تكرر النزول»، ثم يذكر بعض الروايات التي تقوي نزول الآية في الاستغفار لأمه، ووجهة نظره أنه كيف نهي عن الاستغفار للمشركين ثم يستأذن في الاستغفار لأمه؟! اللهم إلا أن تكون الآية لم تنزل بعد، فيقول: «في هذه الروايات دلالة على تأخير نزول الآية عن وفاة أبي طالب، ويؤيده أيضا انه عليه السلام قال يوم أحد بعد أن شج وجهه: رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»، فنزول الآية تأخر وإن كان سببها تقدم، ويكون لنزولها سببان: متقدم وهو أمر أبي طالب، ومتأخر وهو أمر آمنة، ويشير أيضاً إلى ما جاء في رواية البخاري أعلاه من نزول قوله (إنك لا تهدي من أحببت...) في أبي طالب بأنها مشعرة بأن الآية الأولى فيه وفي غيره[٢٣].

أما الرازي فذكر الاعتراض ورد بأنه ما المانع من أن يكون عليه الصلاة والسلام استغفر لأبي طالب من ذلك الوقت إلى وقت نزول الآية، فإن التشديد مع الكفار إنما ظهر في هذه السورة[٢٤]، أما الألوسي فيذكر قريبا مما ذكر ابن حجر والرازي ويضيف انه بناء على ذلك لا يراد بقوله (فنزلت) أن النزول كان عقب القول، بل يراد أن ذلك سبب النزول، فالفاء فيه للسببية لا للتعقيب، واعتمد على هذه التوجيه كثير من العلماء[٢٥].

والذي نراه مناسبا بشأن هذه الآية هو ما ذكره هؤلاء، لانه بناء عليه نوفق بين الروايات التي ثبتت في سبب النزول من حيث المعنى كذلك، حيث ما كان له عليه الصلاة والسلام أن يستأذن في شيء نهي عنه، وأيضاً فلو قلنا بتكرر نزولها لكان هذا تردداً منه عليه الصلاة والسلام، إذ كيف يراجع في المسألة وقد نهي عنها!؟ فالأولى والله أعلم تبني الرأي الذي ذكرنا.

ومن الجدير بالذكر أن الشيخ مناع القطاع قد رد مسألة

---

(٢٠) البرهان، ج ١، ص ٣١.

(٢١) فتح الباري، ج ٨، ص ٣٤١، ٥٠٦، حيث رواه البخاري في عدة مواضع من صحيحه منها هذان برقم ٤٦٧٤ و٤٧٧٢. ورواه مسلم في صحيحه في كتاب الايمان برقم ٣٩.

(٢٢) انظر الحديث في صحيح مسلم، كتاب الجنائز، حديث رقم ١٠٥، ١٠٨، المسند، ج ٢، ص ٤٤١، ج ٥، ص ٣٥٩، النسائي، أحمد بن شعيب، السنن، المطبوع مع شرح السيوطي، دار احياء التراث العربي، بيروت، ج ٤، ص ٩٠، ابن ماجة، محمد بن يزيد، السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، حديث رقم ١٥٧٢، دار الفكر، بيروت، وانظر الرواية الأخرى عند الطبري، ج ١١، ص ٣١، والواحدي في أسباب النزول، ص ١٩٩. وانظر كذلك ابن العربي المالكي، محمد بن عبد الله، أحكام القرآن، تحقيق محمد عبد القادرعطا، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ١، ص ٥٩١-٥٩٢، ١٩٨٨، زاد المسير، ج ٣، ص ٣٨٣-٣٨٤.

(٢٣) فتح الباري، ج ٨، ص ٥٠٨.

(٢٤) الفخر الرازي، التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار احياء التراث العربي، ج ١٦، ص ٢٠٨-٢٠٩.

(٢٥) روح المعاني، ج ١١، ص ٣٣.

القول بالتكرر، لكنه في موضع هذه الآية بالتحديد رد المسألة من جانب تعدد الروايات في سبب النزول ورجح رواية الصحيحين في نزولها في أبي طالب، مع أن المشكلة إنما هي في هذه الرواية بالذات، إذ ان الآية مدنية ووفاة أبي طالب قبل الهجرة(٢٦). فالراجح الجمع بين الروايات بما ذكرنا وما ذكره جمهور العلماء.

قوله تعالى: (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين) (هود، الآية ١١٤).

ممن قال بتكررها الزركشي والسيوطي، فيقول الزركشي ويعدد أمثلة مما تكرر نزوله: «... وكما ثبت في الصحيحين عن أبي عثمان النهدي عن ابن مسعود: «ان رجلاً أصاب من امرأة قُبْلة، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فأنزل الله تعالى: (وأقم الصلاة...)، فقال الرجل: ألي هذه؟ فقال: بل لجميع أمتي»، فهذا كان في المدينة، والرجل كما ذكر الترمذي أو غيره هو أبو اليسر، وسورة هود مكية بالاتفاق، ولهذا أشكل على بعضهم هذا الحديث مع ما ذكرنا، ولا إشكال لأنها نزلت مرة بعد مرة»(٢٧).

ولعل دراستنا لهذه الآية تختلف عما سبق، إذ الأمر منصب على كونها مكية بالاتفاق كما ذكر الزركشي بينما سبب النزول يدل على أنها مدنية، وهذه الحالة هي عكس ما ورد في آية التوبة. وعموماً فالذي نود بحثه هو هل سورة هود فعلاً كلها مكية بالاتفاق؟ فإن ثبت ذلك بقي الإشكال ونود حينها البحث عن توجيه ملائم، وإلا فلا إشكال البتة، لأن مسألة وجود آيات مكية في سور مدنية أو العكس أمر جائز عند جمهور العلماء.

وابدأ بعرض ما ورد في سبب النزول باختصار، فرواية البخاري هي كما ذكر الزركشي أعلاه إلا أن عبارته كانت (فأنزلت عليه...)، والعبارة الأخيرة هي (قال: لمن عمل بها من أمتي)، وكذلك هي عند مسلم في صحيحه في بعض الروايات(٢٨)، ونلاحظ التصريح بالسببية فيها. وثمة روايات أخرى عند مسلم وأبي داود والترمذي وغيرهم وليس فيها التصريح بالسبب، فما روى مسلم: «عن ابن مسعود قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إني عالجت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها ما دون أن أمسها فأنا هذا فاقض فيّ ما شئت، فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت نفسك، قال فلم يرد النبي صلى الله عليه وسلم شيئا فقام الرجل فانطلق فأتبعه النبي صلى الله عليه وسلم رجلا دعاه وتلا عليه هذه الآية، فقال رجل من القوم: يا نبي الله، هذا له خاصة؟ قال بل للناس كافة»، ورواية أخرى عن أنس قال: «جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله: أصبت حدا فأقمه علي، قال وحضرت الصلاة فصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما قضى الصلاة قال يا رسول الله إني أصبت حدا فاقم في كتاب الله، قال هل حضرت الصلاة معنا؟ قال نعم، قال قد غفر لك». وفي رواية أخرى قريبة من هذه عن أبي أمامة وذكر إلحاح الرجل على النبي صلى الله عليه وسلم ولحق به، يقول أبو أمامة: «واتبعت رسول الله صلى الله عليه وسلم انظر ما يرد على الرجل...، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أرأيت حين خرجت من بيتك أليس قد توضأت فأحسنت الوضوء؟ قال بلى يا رسول الله، قال ثم شهدت الصلاة معنا، فقال نعم يا رسول الله، قال فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله قد غفر لك حدك أو قال ذنبك»(٢٩).

وإذا ناقشنا أقوال العلماء حول السورة بشكل عام من حيث كونها مكية أو مدنية فهم على رأيين، فبعضهم ينص على كونها مكية كلها، وهو قول ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة، وإلى ذلك ذهب الجمهور كما صرح الألوسي، ودافع عنه محمد رشيد رضا وسيد قطب بوضوح من خلال ترابط السياق، وبعضهم يصرح بكونها مكية باستثناء هذه الآية، وهي رواية أخرى عن ابن عباس وهو قول مقاتل، وحجة الفريق الآخر هي كون الآية نزلت في أبي اليسر في المدينة(٣٠).

(٢٦) مباحث في علوم القران، ص ٩١.

(٢٧) البرهان، ج ١، ص ٣٠. وانظر الاتقان، ج ١، ص ٤٧.

(٢٨) فتح الباري، ج ٨، ص ٣٥٥، ورقم الحديث هو ٤٦٨٧. وانظر صحيح مسلم، كتاب التوبة، حديث رقم ٢٠.

(٢٩) صحيح مسلم، مرجع سابق، الأحاديث ٢٢ وما بعدها. وانظر سنن ابي داود السجستاني، سليمان بن الاشعث، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، كتاب الحدود، حديث رقم ٤٤٦٨، دار الفكر، بيروت. وانظر الترمذي، ابو عيسى محمد بن عيسى، الجامع، المطبوع مع الشرح الموسوم: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للامام محمد المباركفوري، كتاب التفسير، ج ٨، ص ٥٣٣-٥٣٦، دار الفكر، بيروت، الأحاديث رقم ٥١١٣-٥١١٦، وتفسير الطبري، ج ١٢، ص ٨٠-٨٢، وأسباب النزول للواحدي، ص ٢٠٠-٢٠٣.

(٣٠) معالم التنزيل، ج ٢، ص ٣١٤، زاد المسير، ج ٤، ص ٥٦، تفسير القرطبي، ج ٩، ص ١، البحر المحيط، ج ٥، ص ٢٢٠، البقاعي، ابراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآي والسور، تحقيق عبد الرزاق المهدي، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ج ٣، ص ٥٨٧، ١٩٩٥، روح المعاني، ج ١١، ص ٢٠٢. وانظر مناقشة محمد رشيد رضا في تفسير المنار، ط ٢، دار المعرفة، بيروت، ج ١٢، ص ١٨٧، وسيد قطب، في ظلال القرآن، ط ٧، دار احياء التراث العربي، بيروت، ج ٤، ص ٤٩٠.

الذي نخلص إليه من خلال هذا العرض للروايات وأقوال العلماء هو أحد أمرين، فإما أن تكون السورة مكية باستثناء هذه الآية فمدنية لورود النص في سبب النزول وهذا أمر جائز، ويكون وجودها هنا لا في غيره من المواضع لملاءمة السياق جرياً على الحكم العظيمة في ترتيب نص التنزيل وهو أمر توقيفي، وإما أن تكون السورة كلها مكية فعلاً، وعندها نوجه الروايات في سبب النزول بأنها متضمنة لحكمها لا أنها السبب في نزولها، دل على ذلك مجموع الروايات خلا إحدى الطرق عن ابن مسعود وهي مروية في الصحيحين كما مر معنا، فالأولى حمل هذه الرواية على مفهوم الروايات الأخرى الدالة على أنه صلى الله عليه وسلم قرأ عليه الآية دون أن تكون نزلت بسببه، بمعنى أنها كانت قد نزلت قديماً[٣١]، وهذا هو الأولى حيث الرواية الأولى عن ابن مسعود، بينما الروايات الأخرى بنفس المعنى وتعددت طرقها من أكثر من صحابي، عن ابن مسعود نفسه وأنس وأبي أمامة، بل في بعضها ما يدل على حضور الصحابي القصة كما رأينا، وهذه تعتبر من طرق ترجيح الروايات، وعموماً فنحن هنا لا نرجح الروايات بقدر ما نوجهها، وبناء على أي من القولين فليس هناك من داع للقول بالتكرر.

قوله تعالى: (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين. واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون. إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) (النحل، الآيات ١٢٦-١٢٨).

ممن قال بتكرر نزول هذه الآيات من القدماء السيوطي، وممن أطال المناقشة فيها حديثاً الزرقاني وصبحي الصالح وأبو شهبة، فيذكر الزرقاني روايتين في سبب النزول، إحداهما توضح أن الآيات نزلت عقب غزوة أحد عندما مثل المشركون بحمزة وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم، وعندها قال عليه الصلاة والسلام: «لأمثلن بسبعين منهم مكانك»، فنزل جبريل بالآيات، والأخرى تبين أنه لما مثل المشركون بالمسلمين في أحد قالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين عليهم، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله الآيات، فمجمل قول الزرقاني أن الرواية الأولى تدل على أن نزول الآية كان عقب غزوة أحد مباشرة، والثانية تدل على أن نزول الآية في فتح مكة، فلا يمكن أن تكون الآية نزلت عقب الحادثتين معا لتباعد الزمن بينهما، فلا مناص من القول بتكرر النزول. وليت الأمر وقف هنا بالنسبة له، فيضيف بأن بعض العلماء يرى أن سورة النحل كلها مكية، فعلى هذا تكون الآية نزلت ثلاث مرات...، وذهب أبو شهبة إلى ما ذهب اليه الزرقاني ونقل كلامه مع تصرف بسيط دون الإشارة الى ذلك[٣٢].

أما مناقشتنا لهذه الآية فلن تطول، إذ ان مدار الشبهة على أن الروايتين صحيحتان كما ظن الألوسي والزرقاني وصبحي الصالح وغيرهم، وليس الأمر كذلك، فالرواية الأولى عن أبي هريرة مروية عند الطبري والواحدي والحاكم والطبراني والبزار، وقد ضعّف الحديث كل من الذهبي في تعقبه للحاكم، والهيثمي في تعليقه على رواية البزار والطبراني، وضعفها كذلك ابن حجر[٣٣]، أما الرواية الثانية فصحيحة كما ذكر الحاكم ووافقه الذهبي، ورواها الترمذي وحسنها[٣٤]. وعموماً فهذه الرواية لا تنفي كون الآية في غزوة أحد، لكنها تبين أنها نزلت حين كان الثأر محتملاً لتبين الحكم في ذلك.

أما قول الزرقاني بمكية السورة كلها وبناء عليه تكون الآية نزلت ثلاث مرات فضعيف، إذ استثنى كثير من العلماء هذه الآيات وغيرها على أنها مدنية، فلا حاجة تستدعي القول بالتكرر[٣٥].

قوله تعالى: (ويسالونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً) (الاسراء، الآية ٨٥).

ممن قال بتكرر نزول هذه الآية الزركشي والسيوطي

(٣١) المحرر الوجيز، ج ٧، ص ٤١٨، والبحر المحيط، ج ٥، ص ٢٦٩-٢٧٠، حيث يرجح ابن عطية وأبو حيان ان الآية نزلت قبل ذلك واستعملها الرسول في قصة هذا الرجل. وانظر تفسير المنار، ج ١٢، ص ١٨٨، حيث يشير محمد رشيد رضا الى خلو أغلب الروايات من عبارة سبب النزول.

(٣٢) مناهل العرفان، ج ١، ص ١١٣، المدخل لدراسة القرآن الكريم، ص ١٥٠-١٥١، الاتقان، ج ١، ص ٤٧، الصالح، صبحي، مباحث في علوم القرآن، ص ١٤٤.

(٣٣) تفسير الطبري، ج ١٤، ص ١٣٢، اسباب النزول للواحدي، ص ٢١٤-٢١٦، الحاكم النيسابوري، محمد بن عبد الله، المستدرك على الصحيحين، دار الفكر، بيروت، ج ٣، ص ١٩٧، ١٩٧٨، الهيثمي، علي بن أبي بكر، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، مؤسسة المعارف، بيروت، ج ٦، ص ١٢٢، ١٩٨٦، فتح الباري، ج ٧، ص ٣٧١.

(٣٤) جامع الترمذي مع تحفة الأحوذي، ج ٨، ص ٥٥٩-٥٦٠، المستدرك، ج ٢، ص ٣٥٩.

(٣٥) زاد المسير، ج ٤، ص ٣٢٣، التفسير الكبير، ج ١٩، ص ٢١٧، تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٦٥، البحر المحيط، ج ٥، ص ٥٤٩، روح المعاني، ج ١٤، ص ٩١، ٢٥٧، الشنقيطي، محمد الأمين، اضواء البيان في ايضاح القرآن بالقرآن، عالم الكتب، بيروت، ج ٣، ص ٣٨٧.

وأشار إليها الألوسي، يقول الزركشي: «نزلت لما سأله اليهود عن الروح وهو في المدينة، ومعلوم أن هذه في سورة «سبحان» وهي مكية بالاتفاق، فإن المشركين لما سألوه عن ذي القرنين وعن أهل الكهف قيل ذلك بمكة وان اليهود أمروهم أن يسألوه عن ذلك، فأنزل الله الجواب كما قد بسط في موضعه»[٣٦].

نلاحظ أن الزركشي اعتمد على كون سورة الاسراء مكية بالاتفاق، وأن هناك روايتين في سبب النزول تدل إحداهما على أن الآية مدنية، والأخرى على أنها مكية، وبناء عليه فالآية نزلت مرتين.

وعموماً، فكون السورة مكية أمرغير متفق عليه[٣٧]، فقد استثنى بعض العلماء منها بعض الآيات، وإن كانت هذه الآية غيرمدرجة مع ما يذكرون، فالأرجح أنها مكية جاءت في سياق الحديث عما كان بين الرسول صلى الله عليه وسلم والمشركين من مناقشات ومداولات، ومنها سؤالهم هذا.

والآن نعرض الروايات، فالأولى رواها البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «بينما أنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في حرث – وهو متكئ على عسيب – إذ مر اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح، فقال ما رابكم إليه – وقال بعضهم لا يستقبلكم بشيء تكرهونه – فقالوا: سلوه، فسألوه عن الروح، فأمسك النبي صلى الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئاً، فعلمت أنه يوحى إليه، فقمت مقامي. فلما نزل الوحي قال (ويسألونك عن الروح...)». ووقع في بعض روايات الحديث عند البخاري التصريح بأن ذلك كان في المدينة[٣٨].

أما الرواية الثانية فرواها الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قالت قريش ليهود: أعطونا شيئا نسأل عنه هذا الرجل، فقالوا سلوه عن الروح، فسألوه عن الروح، فأنزل الله تعالى: (ويسألونك عن الروح...)». وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه[٣٩]. وذكر ابن حجر أن رجاله رجال مسلم[٤٠].

وثمة رواية أخرى شبيهة برواية الترمذي هذه إلا أن فيها سؤالهم له عن ثلاثة أشياء، الروح وأهل الكهف وذي القرنين، وهي التي أشار إليها الزركشي في كلامه[٤١].

وإذا رجعنا إلى الزرقاني وصبحي الصالح والقطان[٤٢] فإننا نجدهم يذكرون المسألة في باب التوفيق بين الروايات المتعددة في سبب النزول، وهنا رجحوا أن السبب هو رواية الصحيحين لأنها أصح ولأن ابن مسعود شهد القصة، فردوا رواية ابن عباس، وبناء على ذلك فالآية مدنية. وإذا اعتمدنا على رأيهم فالمسألة محلولة باعتبار أن الآية مدنية ولم تتكرر لأن الرواية التي تقول بمكيتها مرجوحة، وهذا الذي وضحه القطان في رده القول بتكرر نزول الآية.

ولعل الأولى بالأخذ في المسألة الجمع بين الروايتين إن أمكن ذلك، فاعتماداً على قول الترمذي وابن حجر فالحديث الثاني صحيح وإن كان الأول أصح منه، ولا يمنع هذا من أن تكون الآية نزلت في مكة، ولما سأله اليهود في المدينة قرأ عليهم الآية مرة ثانية. وقد ذهب ابن حجر – وقريباً منه البقاعي – إلى أن النبي عليه الصلاة والسلام سكت عند سؤاله لتوقعه مزيد بيان في أمر الروح، فلما لم يكن ذلك قرأ عليهم الآية، فإن ساغ هذا وإلا فما في الصحيح أصح[٤٣]، ويعني رواية ابن مسعود، ويقول ابن كثير وقد ذكر الشبهة واحتمال أن تكون نزلت مرتين: «أو نزل عليه الوحي بأن يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه وهي هذه الآية»[٤٤]. فنلاحظ أن مدار المسألة على ألفاظ ابن مسعود أو أحد الرواة فيما يخص التصريح بسبب النزول وأنه عليه الصلاة والسلام كان يوحى إليه، الأمر الذي لم يبينه الرسول صلى الله عليه وسلم، ونلاحظ اختلاف عبارات الحديث عند البخاري، ففي هذه (فعلمت أنه يوحى إليه)، وفي غيرها (فظننت أنه يوحى إليه)، وفي هذه (فلما نزل الوحي) وليس ذلك في غيرها[٤٥]. فإذا أخذنا بما ذكر ابن حجر فإن المسألة تبدو ميسرة، حيث العبارات تشير إلى أمر غير التصريح بالسببية. ولربما كان رفع البصر منه عليه الصلاة والسلام أو سكوته أو غير ذلك مما تصف الروايات ليتذكر الآية فيجيبهم بها أو لكراهته السؤال، وإحدى روايات

(٣٦) البرهان، ج ١، ص ٣٠. وانظر الاتقان، ج ١، ص ٤٧، روح المعاني، ج ١٥، ص ١٥٣.

(٣٧) زاد المسير، ج ٥، ص ٣، التفسير الكبير، ج ٢٠، ص ١٤٥، تفسير القرطبي، ج ١٠، ص ٢٠٣، البحر المحيط، ج ٦، ص ٣-٤، روح المعاني، ج ١٥، ص ٢.

(٣٨) فتح الباري، ج ٨، ص ٤٠١، الحديث رقم ٤٧٢١، صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين، حديث رقم ٩، تحفة الأحوذي، ج ٨، ص ٥٧٧.

(٣٩) تحفة الأحوذي، ج ٨، ص ٥٧٥-٥٧٦.

(٤٠) فتح الباري، ج ٨، ص ٤٠١.

(٤١) أسباب النزول للواحدي، ص ٢٢٠، تفسير الطبري، ج ١٦، ص ١٠٥، معالم التنزيل، ج ٣، ص ١١١.

(٤٢) مناهل العرفان، ج ١، ص ١١٠-١١١، الصالح، مباحث في علوم القرآن، ص ١٤٥-١٤٦، والقطان، ص ٨٩.

(٤٣) فتح الباري، ج ٨، ص ٤٠١، نظم الدرر، ج ٤، ص ٤٢٢.

(٤٤) ابن كثير، اسماعيل، تفسير القرآن العظيم، ط ١، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ج ٣، ص ٦٠، ١٩٨٨.

(٤٥) الروايات الأخرى في فتح الباري، ج ١، ص ٢٢٣، ج ١٣، ص ٢٦٥، ٤٤٠.

البخاري للحديث جاءت في باب ما يكره من كثرة السؤال[٤٦]. وعموماً فبأي الآراء أخذنا فليس هناك اضطرار إلى القول بتكرر النزول لعدم وجود عبارة صريحة فيه والأَوْلى الجمع بين الروايات.

قوله تعالى: (ألم. غُلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) (سورة الروم).

ممن قال بنزولها مرتين الإمام السيوطي[٤٧] والألوسي في تفسيره حيث يقول: (وقرأ علي كرم الله وجهه وابن عباس وابن عمر وأبو سعيد الخدري والحسن ومعاوية بن قرة (غَلبت الروم) على البناء للفاعل و(سيُغلبون) على البناء للمفعول، والمعنى على ما قيل أن الروم غلبوا على ريف الشام وسيغلبهم المسلمون، وقد غزاهم المسلمون في السنة التاسعة من نزول الآية ففتحوا بعض بلادهم، واضافة (غلب) عليه من اضافة المصدر الى الفاعل، ووفق بين القراءتين بأن الاية نزلت مرتين مرة بمكة على قراءة الجمهور ومرة يوم بدر كما رواه الترمذي وحسنه عن ابي سعيد على هذه القراءة)[٤٨].

نلاحظ من كلام الألوسي أن القول بتكرر النزول إنما هو للتوفيق بين القراءتين، وأن هناك رواية حسنة عند الترمذي تفيد بأن الآية نزلت في المدينة بينما السورة مكية، والآية بحد ذاتها مكية كما تفيد الروايات الأخرى في سبب نزولها، وقد رواها الترمذي نفسه حيث القصة المشهورة بين أبي بكر الصديق وأبيّ بن خلف في الرهان بينهما متى ستكون الغلبة للروم، وكانت الغلبة بعد سبع سنين ووافق ذلك يوم بدر[٤٩].

ويمكن الرد على هذه المسألة من جهتين: الأولى من جهة القراءة، والثانية - وهي الأهم - من جهة سبب النزول.

أما بالنسبة لاختلاف القراءة فالصحيح أن قراءة هؤلاء ليست متواترة ولم ترد عن أحد من العشرة وقد علق الألوسي القول بتكرر النزول على صحة هذه القراءة[٥٠].

أما من جهة سبب النزول فيروي الترمذي بسنده عن ابي سعيد الخدري: (لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس فأعجب ذلك المؤمنين فنزلت «ألم. غلبت الروم - الى قوله يفرح المؤمنون بنصر الله» قال: ففرح المؤمنون بظهور الروم على فارس) وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه هكذا قرأ نصر بن علي غلبت الروم[٥١]. فنلاحظ أن الترمذي نفسه ربط بين القراءة والسبب، فلما تبين عدم صحتها فلا معنى للرواية في السببية.

ومن جهة أخرى فالرواية نفسها معارضة للروايات الأصح منها عند الترمذي نفسه والمعلوم في سبب النزول أن الرواية الأصح تُقدم على غيرها، وحتى لو سلمنا بصحتها فيمكن الجمع بين الروايات بأن النزول كان بمكة، فلما تحقق وعد الله بذلك بعد سبع سنين يوم بدر، قرأ النبي الآية، لا أن المقصود أنها نزلت يوم بدر مرة أخرى. وبناء عليه فنستطيع رد الشبهة بهذه الأجوبة، فلا حاجة للقول بتكرر النزول، والله أعلم.

سورة الاخلاص

ممن قال بتكرر نزولها الزركشي والسيوطي وابن تيمية، فيقول الزركشي ومثله السيوطي بأن السورة جواب للمشركين بمكة وأنها جواب لأهل الكتاب بالمدينة[٥٢]. أما ابن تيمية فيذكر الاختلاف في سبب النزول وأن الجمهور على أنها نزلت في مكة رداً على سؤال المشركين محمداً عن الله سبحانه، إلا أنه يذكر الرواية الأخرى وأن السائلين هم اليهود ويعقب بأن لا منافاة في ذلك، فقد نزلت مرتين[٥٣].

نلاحظ أن الشبهة جاءت من كون وجود روايتين ظاهرهما التعارض في سبب النزول، وبالتالي فحتى نوفق بينهما فلا بد من القول بتكرر النزول. ونبدأ مناقشتنا لما قيل في السورة بعرض الروايات في سبب النزول، ففي جامع الترمذي والمسند عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى (قل هو الله أحد...)، وفي رواية أخرى عن أبي العالية أن النبي صلي الله عليه وسلم ذكر الهتهم فقالوا انسب لنا ربك، قال فأتاه جبريل عليه السلام بهذه السورة. ورغم أن هذه الرواية مرسلة الا ان الترمذي رجحها على الأولى[٥٤]. والرواية الأولى

(٤٦) وهو الحديث رقم ٧٢٩٧ المروي في الباب المذكور برقم ٣، في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة في صحيح البخاري، انظر فتح الباري، ج ١٣، ص ٢٦٥.

(٤٧) الاتقان، ج ١، ص ٤٧.

(٤٨) الالوسي، روح المعاني، ج ٢١، ص ١٩.

(٤٩) انظر هذه الروايات في جامع الترمذي المطبوع مع تحفة الأحوذي، ج ٩، ص ٥٠-٥٤، وانظر كذلك الطبري في تفسيره، ج ٢١، ص ١١-١٣، أسباب النزول للواحدي، ص ٢٥٨.

(٥٠) الالوسي، ج ٢١، ص ٢٠.

(٥١) جامع الترمذي، ج ٩، ص ٥٠.

(٥٢) البرهان، ج ١، ص ٣٠، الاتقان، ج ١، ص ٤٧، كفافي، عبد السلام، وعبد الله الشريف، في علوم القران، ص ٧٢، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١.

(٥٣) مجموع الفتاوى، ج ١٧، ص ١٩١.

(٥٤) جامع الترمذي، ج ٩، ص ٢٩٩ - ٣٠١ والمسند، ج ٥، ص ١٣٣-١٣٤. وانظر كذلك أسباب النزول للواحدي، ص ٣٤٦، تفسير الطبري، ج ٣٠، ص ٢٢١، البيهقي، أحمد بن الحسين، الأسماء والصفات، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٥٠، ١٩٨٤.

ذكرها الحاكم وصححها ووافقه الذهبي، وصححها ابن خزيمة ولها شاهد من حديث جابر بن عبد الله عند أبي يعلى والطبري والطبراني كما ذكر ابن حجر(٥٥).

ويذكر الواحدي وبعض المفسرين سبباً آخر للنزول، وهو أن نفرا من اليهود قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم صف لنا ربك، فإن الله أنزل نعته في التوراة فأخبرنا من أي شيء هو...، فأنزل الله هذه السورة(٥٦). وهذه الروايات رغم نسبتها لابن عباس وغيره إلا انه لم يذكرها أحد من أصحاب التصانيف المشهورة في السنة. وفي الطبراني عن قصة إسلام عبد الله بن سلام وقدومه على النبي عليه الصلاة والسلام أثناء حجه، وقول ابن سلام انعت ربنا فجاء جبريل بالآيات، وهو حديث فيه انقطاع كما ذكر الهيثمي(٥٧).

وقبل أن نرد على الشبهة نذكر بأن الزركشي لم يتطرق إلى سبب النزول واكتفى بقوله إن السورة رد على المشركين وعلى أهل الكتاب، ونقول إن ذلك لا يمنع من كون السورة مكية للرد على المشركين وأهل الكتاب وغيرهم. وإذا نظرنا في الروايات في سبب النزول نجد أن الأصح فيها تلك التي توضح نزول السورة في سؤال المشركين، أي أن السورة مكية. ومن هنا فلا نجد مسوغاً لمن قال بتكرر النزول.

هذه دراسة مباشرة للآيات التي أُدعِيَ تكرر نزولها ورجحنا عدم ذلك بناء على ضعف أدلة التكرر وحججه، ولأن التوجيه الذي ذهبنا إليه هو الأقرب من ناحية إعمال النصوص والجمع بينها إن أمكن، وهو الذي يتمشى مع الأصول التي وضعها جمهور العلماء في شأن أسباب النزول والمكي والمدني. وإذا أردنا مناقشة المسألة من خلال ما ذكر بشأن حكم التكرار فإننا لا نقف على شيء جدي مقنع، فالذي ذكره الزركشي يمكن إجماله في أنه تعظيم لشأن المكرر، وتذكير به عند حدوث سببه خوف نسيانه(٥٨)، وما ذكره الزرقاني ومثله أبو شهبة كان محصوراً في آية النحل، من أن تكرر نزولها فيه حكم عظيمة، حيث تنبيه الله لعباده لما في الآيات من وصايا جامعة...(٥٩)، وهذا كلام مردود حجته ضعيفة، فلم هذه دون غيرها؟ ثم أليس هناك ما هو أعظم من بعض هذه الآيات وأكثر احتواء على الوصايا الجامعة؟ ثم إن مسألة التكرر خوف النسيان لا مسوغ لها البتة، ولا يبقى إلا أن نقول بأن المسألة من أصلها أقحمت ولا دليل عليها والله اعلم، فيبقى إذاً أن نقول لا حجة مقنعة للقول بتكرر النزول.

وأخيراً أشير إلى من تطرق إلى نفي القول بالتكرر، فقد ذكر السيوطي في الاتقان أن من العلماء من أنكره، بحجة انه تحصيل الحاصل ولا فائدة منه، وعارضه السيوطي، وذكر الالوسي حجة أخرى للمنكرين خلاصتها أن النزول هو ظهور من عالم الغيب الى الشهادة، والظهور بها لا يقبل التكرر لأن ظهور الظاهر ظاهر البطلان، وهذا كلام معقول بشكل عام، إلا أنه يمكن رده من قبل القائلين بتكرر النزول عند ذكرهم لما أسموه بحكم التكرر(٦٠)، وممن رجح رد مسألة التكرر الشيخ القطان، كما سبق وأشرنا إليه في موضعه(٦١). واكتفي بالقول هنا بأنني آثرت الدراسة التفصيلية لما ذكر في كل آية على انفراد من أدلة وحجج للقول بتكرر نزولها، وآمل أن أكون وفقت فيما ذهبت اليه، والله ولي التوفيق.

الخاتمة

بعد هذه الدراسة التفصيلية للآيات التي قيل بتكرر نزولها فإني أبرز النقاط التالية لتكون نتائج البحث:

١ – تكرر النزول مسألة أثيرت من أجل الخروج بحل لما صعب توجيهه من النصوص حول سبب النزول عند تعدد الروايات والنازل واحد، أو عندما يدل سبب النزول على مدنية الآية بينما السورة مكية أو العكس.

٢ – هناك سبعة مواضع في القرآن ما بين سور بأكملها – كالفاتحة والإخلاص – وآيات متفرقة قيل بتكرار نزولها، وهي التي نوقش أمرها في هذا البحث، والدراسة ردت على الشبهة بشكل عام من خلال هذه الأمثلة.

٣ – الأوْلى بالقول هو التوفيق بين النصوص الواردة بشأن هذه الآيات، والذي ظهر لي بعد الدراسة التفصيلية أن

(٥٥) المستدرك، ج ٢، ص ٥٤، وفتح الباري، ج ٨، ص ٧٣٩. وانظر كذلك رواية جابر رضي الله عنه في مجمع الزوائد، ج ٧، ص ١٤٩، حيث صحح الهيثمي سنده.

(٥٦) أسباب النزول، ص ٣٤٥. وانظر كذلك تفسير الطبري، ج ٣٠، ص ٢٢٢، زاد المسير، ج ٨، ص ٣٤، مفاتيح الغيب، ج ٣٢، ص ١٧٥، البحر المحيط، ج ٨، ص ٥٢٨، روح المعاني، ج ٣٠، ص ٢٦٩، فتح القدير، ج ٥، ص ٦٥٢.

(٥٧) انظر مجمع الزوائد، ج ٧، ص ١٤٩–١٥٠.

(٥٨) انظر البرهان، ج ١، ص ٢٩، ٣١.

(٥٩) انظر مناهل العرفان، ج ١، ص ١١٤، المدخل لدراسة القرآن الكريم، ص ١٥١.

(٦٠) انظر الاتقان، ج ١، ص ٤٨، روح المعاني، ج ١، ص ٣٤، المدخل لدراسة القرآن الكريم، ص ١٥١–١٥٢، حيث ينقل أبو شهبة كلام السيوطي تقريباً.

(٦١) انظر مباحث في علوم القرآن، ص ٩١.

الروايات مدار المناقشة اما ضعيفة أو مرجوحة أو يمكن الجمع بينها وبين غيرها بأن الآية نزلت أولاً وقرأها الرسول صلى الله عليه وسلم ثانية، دون أن يكون ذلك داعياً للقول بسبب النزول، أو أن تكون الآية مستثناة من كون السورة المشتملة عليها مكية أو مدنية.

٤ – الحكم المذكورة من قبل بعض العلماء حول تكرر النزول هي من أجل إظهاره بصورة مقبولة، والحقيقة أن هذه الحكم غير مقنعة، إذ انها تنسحب على كثير من آي القرآن، فلم حصرها في هذه المواضع فقط؟

٥ – من ذلك كله أرى أن لا ضرورة للقول بتكرر النزول، وبالتالي فلا داعي لإثارة مسائل لا دليل عليها أصلا ولا حجة عقلية مقنعة لقبولها، بل المنطق يتطلب رد المسألة، والله أعلم.

A Study on The Repetition of Certain Revelations

Mohammad Khazer Al-Majali*

ABSTRACT

This study aims to clarify how far the matter of the repetition of certain revelations is proved, a matter which was mentioned by some scholars when it is difficult to combine the accounts which indicate the reasons of the revelation, or when the whole Chapter is Meccan or Medinan, while the verses are against this. In conclusion, and after a detailed study, we can say that there is no need for this repetition, because we can find a solution to such accounts or to any doubt that may arise regarding this matter.

* Assistant Professor, Faculty of Shari'ah, University of Jordan. Received on 11/9/1995 and Accepted for Publication on 7/1/1997.